الأسس النفسية للحكم الديكتاتورى

من الواضح المعروف أن للديكتاتورية مزايا إدارية جمة ، وسرعة ملحوظة فى تناول المواقف ومعالجة الشؤون ، يعينها على ذلك أنها لا تتقيد باعتبارات الرأى العام وأنها ليست مسئولة أمام أحد ، ومسألة سرعة البت فى الأمور ليست لها كبير أهمية فى الأزمنة العادية ، لأن الخير فى الإتقان لا فى السرعة ، وفى العدل وتحريه لا فى المسارعة إلى إصدار الأحكام ، ولكن فى بعض الأوقات يتطرق الاختلال إلى شئون الأمم ، وتتوالى عليها حكومات فاسدة منحلة منخوبة القلب ، مفلولة العزم ، فيسود الارتباك ، وتنجم بوادر الفوضى ، والناس إذا غام الأفق ، وأرتجت عليهم السبل وشرد أمنهم الخوف ، هانت عليهم الحرية . فالطاغية الصارم الذى يتقلد الحكم فى مثل هذه الفترة ويستقل بالأعباء ويكشف الغماء ويحسن التدبير ويعمل على تصفية الجو ويرد إلى النفوس عازب الأمن وضائع الثقة يلقى طاعة وتأييداً ، واحتمال الظلم والطغيان خير عند أكثر الناس من الانزلاق إلى الفوضى والمخبط فى الظلمات

وتمتاز الحكومة الديكتاتورية بمذهب الولاء للفرد وتفخيم أمره وإكبار شأنه ، والصورة البدائية لهذا الولاء تظهر فى أساطير الأبطال عند أكثر الأمم ، ولا تكاد آداب أمة من الأمم تخلو من قصة بطل من الأبطال تعزى إليه المآثر الجمة والأيادى البيض على أمته وبنى الإنسان قاطبة ، ومن هؤلاء الأبطال بروميثيوس عند اليونان ، وهناك صورة أخرى للبطل أحدث عهداً من ذلك وأرق تصوراً ، وهى الاعتقاد بأن البطل حى لا يعرض له الموت وأنه مستتر أو نائم فى كهف أو شعب وأنه يظهر لينقذ أمته فى أوقات الشدة وتفاقم الخطوب ، وبعض هؤلاء الأبطال لهم حقيقة تاريخية أو حقيقة تاريخية مزيفة مثل فردريك بربروسه عند الألمان ومثل الملك أرثر عند الإنجليز ومثل هارولد آخر ملوك السكسونيين ، وصورة البطل فى أمثال هذه الأحوال تمثل الأحلام الغائرة فى سرائر الأمم المضطهدة ، ونوازعها الخفية ، وأمانيها وتطلعاتها وطموحات خيالها ، وهذا الاعتقاد كثيراً مايطوف بأخيلة الأمم ، فقد لوحظ بعد الحرب الكبرى السالفة أن أسطورة قد نسجت حول مصرع اللورد كتشنر ، وكانت هذه الأسطورة ترفض الاعتقاد بأنه مات فى الحادثة المعروفة وتصوره حياً متوارياً

وقد نمت أسطورة مشابهة لها بين مسلمى تركستان عن أنور باشا . والذى يمكن استخلاصه من أسطورة البطل أن توهم فرد « مخلّص » ميمون النقيبة مبارك السعى فكرة طبيعية ترتسم من تلقاء نفسها فى عقول الناس عند مواجهة الشدائد والأحداث الجسام .

وفى تاريخ الأمم المختلفة والعصور المتباينة أمثلة كثيرة تبين افتتان الأمم بأبطالها وإسباغها عليهم بعض صفات الآلهة وخلقها الأساطير حول ذكراهم مما يدل على أن هناك أساساً نفسياً يقوم عليه الإعجاب بالحاكم المطلق والبطل المنيف ، ويمكن معرفة العواطف التى تقوم عليها هذه العقيدة من دراسة الصفات المتناقضة التى تعزوها الأسطورة أو تنسبها الدعاية للبطل الخيالى أو البطل الحقيقى ، فهو ليس عظيم الكفاية وبعيد الهمة وموفور الشجاعة فحسب ، وإنما هو كذلك شديد القسوة عظيم الهيبة كالقدر لا يرحم وكالموت لا يرثى للشاكى .

وقد حاول العلامة النفسى المعروف سيجموند فرويد أن يضع أساس سيكلوجية اجتماعية ، وأقامها على تجربة الفرد ، فالفرد فى رأيه يُعَدّ فى بيئة أسرته للدخول إلى المجتمع ، وأقوى أعضاء الأسرة

هو الوالد ، وتجارب الطفل الباكرة تجعله يعتقد أن والده قادر على كل شيء وأنه خيِّر ، ولكنه مع ذلك يقاوم رغباته وينغص عليه لذاته ، وهو من ناحية أخرى موضوع غيرة من الطفل لأن له سيطرة على والدته ، وقد يستأثر الطفل بأمه بعض الاستئثار فى بواكير طفولته ، ولكن عند ما يصبح ولداً تفضل فى الغالب مطالب أبيه على مطالبه ، والوالد يدخل عنصر الخوف فى حياة الطفل ويهدده بالعقوبة ، ومنه يتعلم الطفل الشعور بالخطيئة ، ويطوى عهد الطفولة ويدخل الطفل فى طور الرجولة ، ولكن الإنسان كثير التلفت إلى الماضى ولا ينى يعود بخياله إلى عهد الطفولة حيث كانت الحياة صافيه المورد عذبة المجتنى ، فكل حاجاته مقضية دون أن يبذل جهداً أو أن يتجشم عناءً ، وهذه التجربة فى بواكير الحياة شديدة التأثير فى تكوين شخصية الإنسان وبناء أخلاقه ، ولذا ينزع الإنسان إلى البحث عن زعيم أو قائد تكون العلاقة بينه وبينه كعلاقة الطفل بوالده ، فهو يحبه ويثق به ثقة لا حد لها ، ولكنه فى نفس الوقت يخشى بأسه ويرهب سطوته ، وتخالجه نحوه مشاعر العداء ، ونفس هذه المشاعر أوجدها فيه والده لإرغامه له على التخلى عن بعض لذاته ومتعه

وللغيرة التى أثارها فى نفسه من ناحية علاقته بأمه ، والطفل يرغب فى أن تكون أمه له بكليتها فلا يشاركه فيها أحد ، وهو يشعر بأن والده هو العقبة الوحيدة فى ذلك وفى الأحوال العادية تتوارى هذه المشاعر ، فلا يكاد يبدو أثرها فى العلاقة بين الابن وأبيه ، ولكن هذا العداء المستتر يفسر لنا اللذة التى يستشعرها بعض الناس عند موت القائد أو سقوط الزعيم ، وهذه النظرية تفسر وجود الديكتاتورية ، ولكنها لا تبين لنا لماذا تنزع بعض العصور إلى الديكتاتورية ، ولماذا تؤثر عصور أخرى الدمقراطية ، وإنما يُعلل ذلك بالظروف السياسية المتقلبة وملابسات الحوادث ، وحقيقة أن كل تغيير سياسى مصدره تغيير نفسى ، ولكن هذا لا يحملنا بعيداً ، فقد يكون باعث التغيير النفسى أمراً خارجاً عن سيطرة الإنسان ، فالمجاعة التى يسببها نقص المحصول قد تحدث ثورة ، ولا ينفى هذا أن هناك ارتباطاً عاماً بين الحوادث الإنسانية والأحداث السياسية ، فالهزيمة فى الحرب قد تغير موقف الناس بإزاء حكامهم ، والرجل الذى يسخر من الديكتاتورية فى أيام السلم وعهود الرخاء و يعتبرها إهانة للطبيعة الإنسانية قد تحمله الحوادث على الزهد فى حريته و إلقاء مقادته إلى يد الديكتاتور التماساً للأمن وطلباً للسلامة ، وأبرز

الخصائص النفسية للعصور التى تظهر فيها الديكتاتورية هى شدة عناية الفرد بتتبع سير الحوادث السياسية ، والسياسة فى أيام الهدوء والاستقرار لا تهم فى الأغلب الأعم سوى السياسيين ، أما فى أيام الصراع الشديد فإن المخاوف تنتاب المجتمع ، ويصيب الناس الجوع والفقر وتضطرب حياتهم اليومية وتعمهم الحيرة والارتباك . وفى هذا الموقف ينزل الناس إلى مرتبة الأطفال الذين لا يفهمون الموقف ويعجزون عن التصرف وترتسم فى أذهانهم صورة المنقذ البطل ، وأيام الشدة تستوجب الرجوع إلى صورة من صور الحكم أبسط وأقرب إلى البداءة

والطريق إلى الحكم الأتوقراطى يقوم على انهيار جميع الدوافع النفسية التى تعمل ضد الخضوع للغير والاستسلام لمشيئته ، وهذا الإعداد النفسى هام جداً فى إعداد المسرح لظهور الديكتاتور ، ولأجل أن يتنازل الناس عن حريتهم لابد لهم من أن يخالوا أن الموقف قد أصبح باعثاً على اليأس قبل قدوم الديكتاتور ، وهذا مايعلل ظهور يوليوس قيصر وأوغسطس قيصر وكرومويل ونابليون ، وفى أوربا الحديثة أعقب الحرب والاضطراب الناشىء عنها ظهور الطغاة المحدثين ، وأثبت بعضهم قدرته واستحقاقه لإعجاب أمته به ،

فمصطفى كمال مثلا هزم اليونان ، و بلسودسكى هزم الروس .

وعندما تستقر مكانة الديكتاتور فان هناك عوامل أخرى تقوى الشعور العاطفى المتبادل بين الحاكم والرعية ، فبعض الناس يرون أيام الطفولة أجمل الأيام وأنضر العهود ، وهذا النوع من الوصاية السياسية أشبه بعودة إلى ذلك الماضى المحبوب تنقص عنه من ناحية وتزيد من ناحية أخرى ، فالحاكم بأمره يقوم مقام الوالد بطرائق شتى ، بل يؤدى وظيفته بقدرة أتم وأوفى ، وفيه مزايا الوالد ولكنه لا يرتكب أخطاء كثيرة مثل الوالد ، ولذا لا يثير مشاعر العداء ، والحكومة فى كثير من الحالات لا تتدخل فيما يضايق الناس، ولذا عندما تهدأ الأحوال، وتستقر الأمور وتزول المخاوف يحب الناس الحاكم بأمره و يبالغون فى الثناء عليه والطاعة له ، والقوة بطبيعتها خلابة بغض النظر عن الأسلوب الذى اكتسبها به الإنسان ، والرغبة فى القوة كامنة فى النفس مهيمنة على الجوارح ، تبدو أول ما تبدو فى محاولة الإنسان فرض نفسه على بيئته كما تدل على ذلك حركات الأطفال ورغباتهم ، وليس فى وسع الإنسان الإخلال بفروضها و إهدار حقوقها ، و إنما يروض الإنسان جماحها و ينقع غلتها بطريقتين ، فهو إما أن يزين

لها لذه الخضوع للغير والاستسلام لقوته وجعله نصب العين وحشو السمع ، وإما أن يحاول أن يضع نفسه موضع الديكتاتور أو الفرد القوى ويحمل نفسه على الاعتقاد بأن إرادته قد تسربت فى إرادة الديكتاتور ، فهو بايمانه به وطاعته له كأنما يتبع ما يمليه عليه عقله وما توحيه إليه نفسه .

وعبادة البطولة موجودة فى كل عصر، وقد أقام عليها كارلايل فلسفته التاريخية وتفسيره لحركات التاريخ المأثورة ، ولكن عبادة البطولة أو الإعجاب بها تبدو فى الأيام العادية موزعة بين أشياء شتى غير موحدة القصد ، فكل جماعة من الناس لهم بطلهم الذى يكبرونه ويتخذونه قدوة لهم ، ولكن فى النظام الديكتاتورى يملأ البطل المشهد ، ويستأثر بالإعجاب، وينفرد باجتذاب العواطف الموزعة ، ويتجه إليه الإعجاب الذى كان منصرفاً إلى نجم من نجوم السينماء أو بطل من أبطال المصارعة والملاكمة أو نابغة من نوابغ لاعبى كرة القدم

والاعجاب بالديكتاتورية يستمد شيئاً من الدين والعقيدة : فقد لوحظ أن عقيدة الإيمان بالحاكم والافراط فى طاعته والمغالاة بقيمته تميل إلى الظهور والانتشار فى الأوقات التى تفقد فيها

الديانات التقليدية سلطانها على النفس ويخالج الناس الشك فى حقيقتها ، ولو أن ذلك ليس السبب الوحيد ، فقد ظهرت فى انجلترا ديكتاتورية كروميل فى وقت تدين قوى ، ولكن الديكتاتور الذى يقمع الأعداء ويحسم الفتن ويدرأ الأخطار ويفزع اليه الناس فيثيبهم على الطاعة والخضوع ، ويعاقبهم على التقصير والخلاف ، يحل محل الدين ويسد مسد العقيدة ، وقد يلهى الناس عن إله السماء جبار الأرض

ويستمد الديكتاتور القوة من مصدر آخر كذلك ، وهذا المصدر هو الاعتقاد « برمزيته » فهو ليس شخصية حية ماثلة فحسب ، وإنما هو فى الوقت نفسه رمز لحقائق كثيرة ومعان شتى ، ووظيفة الرمز أنه يطوى معانى مختلفة ويعبر عن أشياء عديدة ، فلفظة « مصر » مثلاً تشمل حقائق كثيرة بعضها سياسى وبعضها جغرافى وبعضها تاريخى ، ولكن الرمز المنظور أكثر انطباعاً فى الذاكرة وأشد إثارة للخيال ، والديكتاتور رمز حى متجسم ، لأنه يفسر الشعور القومى ويجمع أشتات الميول الشعبية ، وهو أكثر ابتعاثاً للحماسة من « العلم » لأن العلم مجرد رمز ، والديكتاتور له قيمته من حيث هو شخصية ممتازة فله مزية مضاعفة

الشعور وتوليد العواطف ، والديكتاتور يتراءى لأغلب الناس في صورة متوهمة ، ولذا يعزون إليه صفات متناقضة وذلك لأن الناس يتمثلون فيه كل صفة يريدونها ، والولاء لشخصه والافتتان به والتغنى بمفاخره والاشادة بمحاسنه والإطناب فى مزاياه أيسر وأدنى إلى متناول المدارك من الولاء «لفكرة» والإخلاص لها ، وكثيراً ما يمكن هذا الإعجاب الشديد والتدله الحار الشخص المحبوب والبطل المرهوب من الانحراف عن الفكرة التى قام لتمثيلها والدفاع عنها إلى فكرة أخرى ، ربما كانت مناقضة لها أو مختلفة عنها إلى مدى بعيد ، والمهم فى الديكتاتورية ليس الاستيلاء على القوة ، وبلوغ الذروة ، وإنما تثبيت المكانة والاحتفاظ بالنفوذ ، والناس تنساق إلى الحكم الديكتاتورى بعاملين هامين : كفايته العملية ، وجاذبيته العاطفية .

فلسفة الفاشيـــــــة

نظرة عامة :

كان مفكرو اليونان يرون أن الحياة الفاضلة لا تتهيأ أسبابها وتستوفى شرائطها ، وتستكمل عناصرها إلا فى كنف الدولة ، وأن

الدولة هى أقوى الذرائع ، وأقرب السبل إلى تحقيق تلك الحياة وتمهيد مقدماتها ، وكانت الأخلاق فى رأيهم مرتبطة بالحياة العامة متصلة بالسياسة ، فتصورنا للدولة ووظيفتها يجب أن يلون باللون الأخلاقى ويمتزج بإدراكنا للفضيلة ، ثم جاءت المسيحية فباعدت ما بين الأخلاق والسياسة ، وصرفت عناية الانسان إلى العالم الآخر ، ووجهت جهوده إلى الحرص على استنقاذ الروح من مفاتن الحياة ، ومغريات الحواس ، وأغرت النفوس بالزهادة والاستهانة بأمور الدنيا ، وأحوالها المتقلبة الفانية ، ومنذ عهد إحياء العلوم قطعت الصلة بين التفكير السياسى والتفكير الأخلاقى وسار كل منهما فى طريقه ، وأول من أعلن انفصالهما فى جرأة وصراحة هو مكيافلى فى كتاب الأمير .

وقد عادت السياسة إلى الاتصال بالأخلاق فى العصور الحديثة ، ويتجلى ذلك فى المذاهب السياسية السائدة التى تناوىء الدمقراطية ، وأخصها الفاشية والشيوعية .

ونظرية سيادة الدولة المطلقة هى أكبر ينابيع الفاشية وأقوى أصولها وأمتن دعائمها ، والفاشية إلى حد كبير تحقيق عملى لتلك النظرية ، ويزعم شراح المذهب الفاشى أن الفاشية ليست نظرية

للدولة فحسب ، وإنما هى رأى فى طريقة الحكم ، وموقف تجاه الحياة ، ونظرة خاصة للكون والمجتمع ، وأسلوب مستحدث فى علاج مشكلاته ، وتفريج أزماته ، وهى ليست مقتصرة على نبذ الدمقراطية ، والقضاء على الاشتراكية ، وإنما هى فى منزلة بعث جديد للروح الإنسانية

والمذهب الشيوعى لا يغالى فى ادعاءاته الاخلاقية الشاملة كما تفعل الفاشية ، ولكنه مع ذلك يتطلب نظراً معيناً للاخلاق ، والشيوعية تحبذ أسلوباً خاصاً للحياة ، وترجحه وتؤثره على غيره ، وتدعو إلى الأخذ به ، والسير بمقتضاه ، ورأيها مستمد من التصور الشيوعى للمجتمع ، وطبيعة القوى التى تحرك التاريخ وتؤثر فى الحركات الاجتماعية ، ومسائل الأخلاق تبحث عند الشيوعيين من ناحية علاقتها بالعوامل السياسية ، والاعتبارات التاريخية والظروف الاقتصادية

وكلا الشيوعية والفاشية يفرض على الأفراد الشيوعيين أو الفاشيين أن يعيشوا على نهج خاص ، وأسلوب يزيد رفعة الدولة ومجدها ، وعليهم أن يعلنوا محاسن ذلك الأسلوب وينشروا مزاياه ويبشروا به ، وهم فى سبيل ذلك لا يحجمون عن إيذاء مخالفيهم

واضطهادهم ، والشيوعية والفاشية فلسفتان عمليتان . ومثل هاتين الفلسفتين قد يحتمل المعارضة ، ويتسع صدره للمناقشة فى ساحات التفكير وميادين البحث ، ولكن عندما يدين بمبادئه حزب من الأحزاب ، ويصل عن طريقها إلى مراكز الحكم ومقاليد السلطة ومعاقل النفوذ يصبح لا يحتمل المعارضة ، ولا يطيق المناظرة

والشيوعية والفاشية — على نقيض الدمقراطية والفردية — يميلان إلى توحيد السياسة والأخلاق ، ويحاولان أن يجعلا الوطنية قوة إيجابية فعالة عاملة على تحقيق المثل العليا والغايات المنشودة ، ويتطلعان إلى القضاء على كل الأحزاب والشيع التى تخالفهما فى الرأى ، وينكران عليها كل حق من حقوق التعبير عن آرائها وغايتهما أن يصيرا عقائد شاملة مستوعبة لنواحى الحياة جميعها ، مسيطرة على كل فكرة وكل عاطفة ، وبذلك تصير السياسة والأخلاق شيئاً واحداً

ونظرية الفاشيين فى الحكومة هى نظرية سيادة الدولة المطلقة ، فالدولة أعظم من الفرد ، وحقها فى الوجود يفوق حقوق الأفراد ويسمو عليها ، وللدولة غاية تبغى طلابها ، وواجب الأفراد معاونتها على أداء تلك الغاية ، ونمو شخصيتهم ونضج ملكاتهم ، رهن

بالمشاركة فى النهوض بذلك الواجب ، وخدمة الدولة تسمو بالفرد وترفعه إلى الذروة وتحلق به فوق المآرب الشخصية ، وهى لا تحيل الفرد عبداً و إنما تعلمه الكفاح والعدوان وتأكيد النفس والاعتزاز بالشخصية فى سبيل خدمة الأغراض السامية ، وطاعة الرئيس تربأ به عن الانغماس فى الصغائر والاستغراق فى الأنانية والغرور

والدولة عند الفاشستيين ليست مدينة للفرد بشىء لأنها أسمى منه ، والكفة بينهما غير متساوية والمقام متفاوت ، بل هى منبع كيان الفرد وأصل آدابه ، وهى حرة من الالتزامات الأدبية مع غيرها من الدول لأنها قوة لا يتطاول إليها أحد ولا يساميها إنسان ، وهى من ثم لا تقبل الخضوع لعصبة الأمم ، والنظام الفاشى أو الشيوعى يتطلب الحجر على حرية الفكر وحرية النقد وحرية الخيال لأن هذا الحجر فى زعمه لصالح الدولة ، وصالح الدولة هو ما تريده الإرادة العامة أى « الإرادة الحقيقية » للشعب ، وهذه الإرادة يفسرها فى ألمانيا أعضاء الحزب الوطنى الاشتراكى وينطق عن لسانها فى إيطاليا الحزب الفاشى .

تعليل ظهور الفاشستية :

يرد بعض الباحثين أسباب ظهور الفاشية إلى ظهور حالة

عاطفية جديدة مصدرها أن العالم الحديث فيه رجال كثيرون لهم همة ماضية وعقول ثاقبة ، ولكنهم لا يجدون مجالاً لهمتهم ، ولا ميداناً لتدريب مواهبهم ، وهم من ثم تائقون إلى النفوذ والقوة ، ولا يحجمون عن اصطناع القسوة لبلوغها ، وقد سلبهم العصر الحديث قوتهم ، وغمطهم حقهم ، وفوت عليهم فرص النجاح ، وشل حركة القادرين على الابتكار والتجديد ، وقيد نشاطهم ، وأوصد فى وجوههم أبواب المغامرة والمخاطرة ، وسلط عليهم الملل والسأم ، وأمثال هؤلاء يجدون فى الفاشية خير منفذ .

ويرى البعض فى الفاشية بديلاً من الدين فى عصر وهنت فيه العقائد ، وضعف سلطانها على النفوس ، ودالت دولتها ، والطبيعة تكره الفراغ ، فغير عجيب أن تحل الفاشية محلها وتقوم بمهمتها .

ويعللها البعض بأنها ثورة على الحضارة ، وذلك لأن حركة التقدم تحدث ضغطاً على العقل ، وتستحثه على أن يلائم بين نفسه وبين الوسط المتجدد ، وهذا الملاءمة تستدعى كبحاً من ناحية وطول احتمال لأفكار وأساليب لا عهد له بها من ناحية

أخرى ، وعند ما تسرع حركة التقدم و يشتد ضغطها يبدأ الذين يشعرون بنقصهم وتخلفهم إزاء ذلك التطور المتتابع والتقدم المستمر يحسدون المتفوقين البارزين ، ويتولد فى نفوسهم الميل إلى رد فعل لإيقاف ذلك التقدم واعتراض سيره ، والعودة إلى أساليب أدنى إلى البساطة ، وأيسر للفهم ، وأقرب إلى إظهار الشجاعة والإقدام والطاعة والثقة بالحكام ، وهكذا عند ما يفوق تطور الحضارة مقدرة الإنسان على التكيف بحسب الأحوال الجديدة يصبح خطر العودة إلى الأحوال القديمة والطرق المهجورة ماثلا ، و يشتد كره المستوى العالى والحياة المعقدة المركبة ، ويبدو ذلك فى صور مختلفة ، منها صورة الرغبة فى الاحتفاظ بالتقاليد القديمة والعودة إلى أساليب الحياة البسيطة الساذجة ومحاولة الحرص على نقاوة الشعب ، والعمل على استئصال الفساد السياسى والانحلال الأخلاق .

ويعلل الشيوعيون الفاشية بانها آخر مرحلة من مراحل النظام الرأسمالى ، وهى فى عرفهم رأسمالية عجزت عن إجابة مطالب العمال ، ومواجهة قوتهم النامية دون أن تهدم أساسها وتكشف عن زيفها ، ولذلك خلعت عن وجهها النقاب وأعرضت عن

ادعاء الدمقراطية السياسية وتنكرت لمبادىء الحرية .

أما أنصار الفاشية فيفسرونها بأنها يقظة جديدة و بعث للروح ، ويشبهونها بنهضة إحياء العلوم . ووجهة نظرهم أن أوربا قد استولى عليها منذ عهد الحضارة القديمة تياران فكريان: أحدهما تيار الفكر اليونانى والآخر تيار الفكر الرومانى ، فالتيار اليونانى هو الذى عمل على تقوية التفكير النظرى وشجع نزعة الشك ، وأوحى الميل إلى التجربة وألهم الفردية وشدة الإحساس بها . والتيار الرومانى هو الذى أوحى الولاء وحب التعاون الاجتماعى ، والرغبة فى النظام واحترام التقاليد . وقد أعاد عصر إحياء العلوم للقيم اليونانية مكانتها ورد عليها سالف قوتها لأنه هو الذى بدأ عهد حرية التفكير وأعاد فى عالم البحث طريقة التجربة والاستقراء التى انتهت بانتصار العلوم من ناحية وتحطيم الأديان من ناحية أخرى ، و بدأ فى عالم السياسة عهد الدمقراطية والحرية والمساواة ، وأوجد فكرة أن الحكومة هى وسيلة لإسعاد الفرد ، ولم تجد الروح اليونانية كابحاً فتطوحت وتغالت حتى أشاعت الفوضى فى الآداب والسياسة ، وعصفت باليقين ، وثمرتها المرة هى الشيوعية والفوضى فى المسائل الجنسية ، والكفر

والتمرد ، وقد استلزم ذلك العودة إلى حركة بنائية فى السياسة والآداب لترجيح جانب التيار الفكرى الرومانى ، وقد تحققت هذه الحركة فى الفاشية لأنها عودة إلى الفضائل الرومانية ، فضائل الولاء والنظام ، وهى لا تعنى بتقدم الفرد ، وإنما تعنى بالتضامن الاجتماعى ، والمثل الأعلى عندها ليس هو العالم فى معمله ولا المفكر فى مكتبه ، وإنما هو المجاهد الشجاع الصبور الذى يسحق أهواءه ويغالب شهواته ويتعمق فى تدينه ، ويدافع عن الضعيف ، ويناضل عن الحق ، وينتصر للتقاليد ويذود عنها ، ورجل العمل عند الفاشيين أقرب إلى فهم الحياة وإدراك كنهها من المفكرين ، لأن المفكر يفهم الحياة عن طريق العقل والتحليل ، فى حين أن حقائق الحياة الحيوية إنما تفهم بالبداهة الموفقة ، والألمعيـة اللامحة ، والفلسفة الفاشية لا تعول على العقل وإنما تعتمد على الغريزة والإيمان ، والحياة فى نظر الفاشيين تحد دائم ، وجهاد متصل يرهف الحواس ويشد أوتار الأعصاب ويشحذ الهمة ، ويغرى بحب المخاطرة ، وليست السعادة عند الفاشيين هى غاية الحياة ، وإنما غايتها المجد والكفاح .

آباء الفاشية : —

من المفكرين الذين مهدوا السبيل للفاشية والنازية الفيلسوف الألمانى نخت ، فقد كان يرمى إلى ضم صفوف الألمان لمقاومة نابليون ، وحاول أن يثير الشعور القومى ، وأن يعزز فى النفوس الولاء للوطن ، فذهب إلى أن التربية يجب أن تتجه إلى تنشئة الشعب الألمانى على منوال يوحد أفكاره وأمانيه ، وأشار إلى أن الوسيلة الوحيدة لذلك هى التدريب العسكرى والنظام الحربى ، فكل فرد يلزم أن يخضع لهذا النظام ، ويتناول بهذه الطريقة ، والوطن فى زعمه رداء الأبدية ، وعلى الأفراد أن يجودوا بأنفسهم فى سبيله ، وهو يقسم الناس إلى قسمين كبيرين ، وهما النبلاء وغير النبلاء ، وغير النبلاء إنما يعيشون ليخدموا النبلاء ويلبوا مطالبهم ، وينقادوا لهم ، وميزة النبيل قوة الإرادة ومضاء العزيمة ، والإرادة عنده أساس الرجل ومحور شخصيته ، وجميع ضروب الفاشية تقوم على إكبار الإرادة والإشادة بها ، والإرادة فى رأى الفاشيين هى العامل الحاسم فى التاريخ . ولكن إلى أى غرض يوجه الرجل الأسمى إرادته ؟ يرى نخت أن الرجل الأسمى إنما يوجه إرادته إلى عمل الخير ومصلحة الشعب ، ونفع

الوطن . وقد جاء بعده نيتشه ليؤكد أن القوة فى نفسها هى غرض الرجل الأسمى

ونيتشه ينكر المساواة ، ويرى أن البشر غير متساوين ، وهو يهاجم آداب المسيحية فى شدة وقسوة ، وعنده أن التواضع والخشوع من آداب العبيد ، وأن الإنسانية والعطف والرحمة من علامات الضعف ، وهو من أجل ذلك يعتبر المسيحية ديانة الضعف ، فهى تؤكد للفاشلين فى الدنيا أنهم سيظفرون بالسعادة فى العالم الآخر ، وتقاوم صفات الرجولة والكبرياء وتأكيد النفس . والواقع أن نيتشه فى تفكيره الأخلاقى قد تأثر بتصور دارون للانتخاب الطبيعى وتنازع البقاء ، وقد ذهب دارون إلى أن البقاء للأنسب فجاء نيتشه واستنبط من ذلك حكمة أخلاقية فقال إن الأنسب يجب أن يبقى ، أى أنه حاول أن يستخرج قانون الأخلاق من نظرية التطور . ومن طبيعة الآداب القائمة على أساس هذه النظرية أنها ترى أن الصالح هو ما ساعد على التطور ، وأن الشر هو كل ما عاق حركة التطور ، ومن طبيعة الحياة أنها تحاول على الدوام أن تفوق نفسها ، وأن تخرج صوراً أرقى وأكمل من ناحية الصفات العضوية ، ومن جانب الأخلاق

ولكن كيف يعرف التفوق الأخلاقى والسمو الروحى ؟ سمات الامتياز الأخلاقى والنبوغ الروحى هى رغبة الفرد الممتاز فى أن يخضع لإرادته الغير ، وإنما ظهرت الدمقراطية لمقاومة ذلك ، وعكس آيته ، وإبدال سننه ، وحب القوة عند نيتشه هو أقوى العواطف ، وقد يكون الإنسان موفور الصحة ، وفى نعمة سابغة ، ولكنه يظل مع ذلك تعساً محزوناً لأنه ظامىء إلى القوة ، متطلع إلى النفوذ والسلطان ، والميل إلى القوة هو الزلزال الذى يهدم الفاسد ويبعثر القبور ، وإعلاء إرادة القوة وتمجيدها أدى بنيتشه إلى تصور نوعين من الآداب ، آداب العبيد الذين يمقتون القوة ، وعدم المساواة ، وآداب السادة التى تعتبر القوة هى غاية الحياة ، وتحفز السادة على طلب الاستزادة من القوة وتقوية الصفات التى تعين على تحصيلها ، وعنده أن الفرق بين الخير والشر معناه الفرق بين النبل والضعة ، فى حين أنه عند العبيد هو الفرق بين النافع والخطر ، وآداب العبيد فى رأيه آداب نفعية ، وكما ارتقى الإنسان وجاوز مستوى القردة ، فكذلك سيرتقى الإنسان الأعلى ويسمو على مستوى الإنسانية ، والإنسان الأعلى هو هدف التطور وغايته ، ويمتدح نيتشه الكفاح والغلاب ، وقد كان هجل

يمتدح الحرب ويكبر من شأنها لأنها تزيد الدولة قوة وبأساً ونفوذاً ، أما نيتشه فإنه يمتدح الكفاح لأن الشجاعة وقوة الإرادة ومضاء العزيمة هى فضائل الإنسان البارزة ، والكفاح يستلزم الشجاعة ، ويقوى الإرادة ، ويهيىء الفرصة للرجل القوى ليظهر قوته وتفوقه ، وقد التفت إلى ذلك مكيافلى فأوصى أميره بأن يجعل فن الحرب واجبه وشغله الشاغل لأنه علم الذين يباشرون صناعة الحكم ، والحرب عند نيتشه دواء ناجع للأمم المستضعفة الواهنة إذا كانت تحرص على الحياة وترغب فى البقاء

وقد سار فى غبار نيتشه جماعة من كتاب الألمان رددوا هذه النغمة وأطالوا فيها وأسرفوا إسرافاً لا مزيد عليه فى طليعتهم تريتشكه وبرناردى ، وكل من يقبل آراء نيتشه ونخت يصبح يعتقد بنبل نفسه وسموها ، والفاشية تعلى الإرادة وتمجد القوة وتقسم الناس إلى فريقين : فريق من حقه أن يسعى إلى القوة وفريق تنقصه قوة العزيمة فواجبه طاعة الأقوياء والانقياد لهم ، وخطب الفاشيين وأحاديثهم ورسائلهم تنم على نبذ فضائل المسيحية والأخذ بالآداب الوثنية

وقد تأثر بنيتشه المفكر المعروف اشبنجلر صاحب كتاب

« تدهور الغرب » وكتابه محاولة مفصلة محكمة لإثبات حتمية انحطاط الغرب وسقوط حضارته ، والحضارة الغربية عنده مشفية على التدهور لأنها تثق بقيمة العقل الإنسانى الحر ، وتتخذه مبدأ للنظام والعمل ، والناس تثق بالعقل أكثر مما يلزم ، ونفس هذه الثقة توضع وضعاً خاطئاً بتركيزها فى النظام الدمقراطى للمجتمع وما يشمله من التصويت العام والمجالس النيابية ، وستسود « القيصرية » فى العالم الذى سينبعث من جديد وتكسر قيود سلطة النقود وتقضى على الدمقراطية ، وتقوم هذه القيصرية على الدم والعنصرية

وقد مهد توماس كارلايل السبيل لمهاجمة الدمقراطية فقد فسر التاريخ تفسيراً يقوم على صنيع الفرد « البطل » واستخف بالمجالس النيابية ونعتها بأنها « حوانيت للثرثرة » ، والمفكر الأسبانى العصرى أورتجه يرى أن ظهور الجماهير هو طابع العصور الحديثة ، ويرى أن الجماهير فظة غليظة حمقاء جاهلة ، فهى تؤثر القوة لا العقل فى حين أن النبل وقف على الأقلية ، وهو يحذر من طغيان الأكثرية على الأقلية المستنيرة ، ويسترعى النظر إلى النتائج الخطيرة التى تترتب على ذلك فى مختلف فروع الثقافة

ونواحى الحياة ، وهو من المفكرين الذين يرون فى تحاسد الجماهير وتباغضها وغبائها أكبر ما يهدد نمو الحضارة وذيوع الثقافة ، فهم يؤثرون من أجل ذلك تسليم مقاليد الحكم للأقلية الممتازة ، وهذه الأقلية فى رأيهم أسمى عقلا وأنبل أخلاقاً من الغوغاء وأقدر على سياسة الأمور .

وأمثال هؤلاء المفكرين لم يتفقوا على صورة من صور الحكم الارستقراطى ، وإنما يجمعهم ويؤلف بينهم فقدان الثقة بالجماهير من حيث هى قوة حاكمة ، وهم يخشون نزعات الهبوط بالحضارة التى يزعمون أنهم كشفوها فى الجماعات ، ويطمئنون إلى وضع الأمور فى يد الأقلية العاقلة الرشيدة التى تقدر قيم الحياة الروحية ، ومثل هذه الأقلية عندهم أقدر على النفع وأنهض بالأعباء .

وقد أشرت فى الفصل الخاص « بطلائع الديكتاتورية » إلى تأثر موسوليني بآراء سوريل وباريتو ، والتاريخ عند باريتو أدوار متعاقبة يتغلب فيها فريق مختار ناشىء قوى على فريق مختار قد ذهبت قوته ، وضعف شأنه ، وهكذا دواليك ، وباريتو ينتقص الحكم النيابى ويمجد القوة فى المحافظة على السلطة السياسية ، ويعتبر التمثيل الشعبى أسطورة لأن الأقلية

الارستقراطية هى التى تحكم على الدوام ، وقد أثرت أفكاره فى إيطاليا لأن الحزب الناشىء هناك سره أن يعلن أنه هو « الفريق المختار » وأن زعيمه هو زعيم الصفوة المتخيرة

والنظريات السياسية التى مهدت للفاشية ووطدت بناءها ترفض بالإجماع فكرة الحرية السياسية وفكرة المساواة والحكومة القائلة بضرورة الموافقة الشعبية والاتفاق على تقرير السياسة العامة بطريق المجالس النيابية ، وتقرر أن الدولة مطلقة السلطة تامة السيطرة على كل مناحى الحياة ، وتؤثر حصر السلطة فى يد حاكم أوتقراطى ، وتعلن تفوق القوة ، وتنبذ حقوق الأفراد

وقد قدم لها المجموعة الفكرية التى تستمد منها التأييد والاستعلاء الفلسفى أمثال هجل ونيتشه وكارلايل وسوريل وباريتو واشبنجلر ، وعلى نظرياتهم اعتمد موسوليني وهتلر ، وعندهما أن العمل مفضل على التفكير ، وأن الإرادة والقوة خير من البحث والتروية ، والمساواة أكذوبة من أكاذيب الدمقراطية لأن الناس غير متساوين وكذلك الشعوب ، وعلى صخرة عدم المساواة يقوم بناء باق متين للمجتمع الإنسانى يُعترَف فيه بالزعامة ، ويصفو لها الجو فلا ينازعها أحد السلطة ، ويجد كل سيد مكانه

المناسب ، والجماعات غير قادرة على فهم أغراض الزعماء الأعالى ، وما على الزعيم من بأس فى ترفعه عن عرض أعماله على الجماعات لأنها تفضل الطاعة وتؤثر الانقياد ، ومثل هذا النظام يمحو الحرية والمساواة والتمثيل والنيابة ويرفع التبعة عن كاهل الحكام والزعماء ، وتثبيت مركز الزعيم يقتضى الأخذ بنظرية « الحزب الواحد » كما فى ايطاليا وألمانيا وروسيا ، ففى إيطاليا مثلا يزعم موسولينى أن إيطاليا هى الحزب الفاشى ، وموسولينى هو زعيم الحزب الفاشى فهو إذن سيد إيطاليا غير منازع وقس على ذلك سائر الديكتاتوريات .

الفلسفة الماركسية

الشيوعية مذهب فى الاقتصاد ، وخطة فى السياسة ، وعقيدة فلسفية تدين بها فى العصر الحاضر دولة عتيدة كثيرة السكان مترامية الأطراف ، وتحاول تثبيت قواعدها وبسط سلطانها ، ولا معدى لنا إذا حاولنا أن نتعرف طبيعة العصر الحاضر ، ونلم بمشكلاته البارزة ، وسياساته المتعارضة من أن نختبر فى نزاهة ودقة تعاليمها ودعاويها واتجاهاتها ووعودها ، وقد يتراءى للبعض